أصول الخطاب الثقافي ومشكِّلاته في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي

أ. حسين عمر دراوشة
باحث في علوم اللغة العربية ومعارفها- فلسطين
المِراق:hussien2013333@hotmail.com

ملخص البحث: يسعى البحث إلى دراسة أصول الخطاب الثقافي ومشكِّلاته في آثار الإمام الإبراهيمي، وذلك من خلال الحديث عن حياة الإبراهيمي، وبيان منجزاته الثقافية في حقول العلم والمعرفة، والكشف عن مضامين الخطاب الثقافي وموضوعاته التي تحدث عنها، وتسليط الضوء على أصول الخطاب الثقافي ومشكِّلاته وقضاياه ومسائله، وتوضيح كل ما سبق بالمنهج الوصفي التحليلي، ومن ثم الخاتمة وفيها نتائج البحث وتوصياته، وفهرس للمصادر والمراجع.

الكلمات الدالة: (الخطاب الثقافي، الإبراهيمي، مشكِّلات الخطاب).

The origins of the cultural discourse and its problems in the effects of Imam Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi

Abstract: *The study seeks to study the origins of the cultural discourse and its problems in the effects of Imam Ibrahimi, by talking about Brahimi's life, his cultural achievements in the fields of science and knowledge, and exploring the contents of the cultural discourse and its subjects. And clarify all the above descriptive analytical approach, and then the conclusion and the results of the research and recommendations, and a catalog of sources and references.*

Key words*: (Cultural discourse, Brahimi, speech problems).*

المقدمة:

أنتج المجتمع الجزائري مفكرين أفذاذ، عملوا على تنوير شعوب أمتهم، وبناء وعيهم بمجريات الأحداث والوقائع التاريخية ومساراتها ومآلاتها، من أجل التحرر والانعتاق من الاستعمار والتبعية، ويعد الإمام العلامة محمد البشير الإبراهيمي من أساطين الفكر وأرباب الثقافة الذي أسهم أيما إسهام في تكوين العقل الثقافي الجزائري، فترك بصماتٍ واضحةً في الثقافة القومية والتاريخية لأمة العرب والمسلمين، بل يتعدى الأمر ذلك إلى الثقافة العالمية التي أردفها ببراعة عقله وقوة تفكيره وامتلاكه لزمام الخطاب الثقافي العالمي الذي تطرق من خلاله إلى موضوعات وأفكار شتى؛ لذا يسعى هذا البحث إلى الحديث عن أصول الخطاب الثقافي ومشكِّلاته في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

إشكالية البحث: تتمثل في التعرف على أصول الخطاب الثقافي ومشكِّلاته في آثار الإمام الإبراهيمي، من خلال تحليل هذا الموضوع والسعي الجاد إلى معالجته من خلال محاور البحث ومباحثه.

أهداف البحث: بيان أصول الخطاب الثقافي ومشكِّلاته عند الإمام الإبراهيمي، وتسليط الضوء على حياته ومنجزاته الثقافية، والحديث عن مضامين الخطاب الثقافي وأفكاره ومحاوره التي ترتبط بعمق التراث العربي والإسلامي، واستجلاء معالم الخطاب الثقافي وأصوله ومشكِّلاته في آثار الإمام الإبراهيمي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أهمية البحث: الوقوف على الخطاب الثقافي المطروح في آثار الإمام الإبراهيمي، وإثراء التجربة العربية بمنجزات الإمام الإبراهيمي في إنتاجه للخطاب الثقافي وإبداعاته، وإضافة دراسة جادة جديدة لمكتبة اللغة العربية والخطاب الثقافي؛ ليتسنى للباحثين والدارسين والجهات ذات العلاقة الاستفادة من موضوع البحث وأفكاره.

منهج البحث: يستخدم البحث المنهج الوصفي التحليلي، مع استحضار نماذج تطبيقية من آثار الإمام الإبراهيمي وأقواله التي من شأنها أن تكشف لنا عن أصول الخطاب الثقافي ومشكِّلاته، وانعكاساته على تكوينات الشخصية الجزائرية خاصةً، والعربية والإسلامية عامةً؛ فيناقش هذا البحث أصول الخطاب الثقافي ويسعى إلى تحليل مكِّشلاته والتطرق إليها بشيء من التفصيل، والاستعانة بالمصادر والمراجع ذات الصلة بموضوع البحث، من أجل تحقيق أهداف البحث وغاياته المنشودة، من خلال محاوره ومباحث موضوعاته، ومن ثم النتائج والتوصيات وفهرس للمصادر والمراجع.

أولاً– حياة الإمام الإبراهيمي[1].

– اسمه ومولده: محمد بن البشير بن عمر الإبراهيمي، رئيس جمعية العلماء المسلمين، وعضو المجامع العلمية العربية في القاهرة ودمشق وبغداد، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، خطيب، من الكتاب البلغاء، العلماء بالأدب والتاريخ واللغة وعلوم الدين، ولد في قصر الطير، في قبيلة ريغة الشهيرة بـ "أولاد إبراهيم" بدائرة سطيف، والتي يرتفع نسبها إلى إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة في المغرب.

– حياته العلمية: تلقى دروسه الأولى عن أبيه وعمه، ثم في زاوية ابن شريف في شلاطة بجبال القبائل. هاجر إلى المدينة المنورة (1911 م) فأتم دراسته العالية فيها، ثم انتقل إلى دمشق سنة (1917م) وعمل أستاذا للأدب العربي بالمدرسة السلطانية، وكان من بين الزعماء العرب وقادة الفكر فيهم الذين التفوا حول الأمير فيصل بن الحسين وبايعوه زعيماً للثورة العربية الكبرى إثر إعدام جمال باشا السفاح لأحرار العرب في دمشقا وبيروت سنة (1916م)، كما شارك في تأسيس المجمع العلمي العربي سنة (1921م)، وفي نفس السنة عاد إلى الجزائر وانقطع للخدمة العامة مع رائد نهضة ابن باديس وصحبه.

ولما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة (1931م) كان من أبرز مؤسسيها وانتخب نائبا للرئيس عبد الحميد بن باديس، وفي مطلع الحرب العالمية الثانية سنة (1940م) نفاه الفرنسيون إلى "آفلو" في جنوب الجزائر، ومات ابن باديس في نفس السنة، فانتخب لرئاسة جمعية العلماء خلفا له وهو في منفاه، واستمر معتقلا ما يزيد على ثلاث سنوات، ثم اعتقل وسجن وعذب سنة (1945م)، وفي هذه الفترة من حياته أنشأ عدداً كبيراً من المدارس العربية وأهمها معهد عبد الحميد بن باديس الثانوي بقسنطينة، كما تولى مسؤولية جريدة "البصائر" الذائعة الصيت في المغرب والمشرق والتي كانت من أقوى الصحف العربية دفاعاً عن قضايا العروبة والإسلام، وفي سنة (1952م) رحل إلى المشرق وجال في أكثر بلدانه ثم استقر بالقاهرة، واندلعتْ نار الثورة الجزائرية التحريرية (1954م) فانتدب من قبل قيادتها للقيام بمهمات لدى الدول العربية والإسلامية، فقام بها أحسن قيام، وعلى إثر استقلال الجزائر (1962م) عاد إليها وأقام بالعاصمة مريضاً وقد هدّه الجهد والإعياء إلى أن توفي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– **آثاره:**من آثاره "عيون البصائر" طبع منها مجلدان، و"الإطراد والشذوذ في اللغة" و"أسرار الضمائر في العربية" و"التسمية بالمصدر" و"كاهنة أوراس" و"رسالة الضب" و"فصيح العربية من العامية الجزائرية" و"أرجوزة " في 36 ألف بيت ضمنها تقاليد الشعب الجزائري وعاداته، كما له مقالات كثيرة نشرتْ في صحف المغرب والمشرق.

– **وفاته:**توفي في 20 مايو (1965م)، الموافق هجري (1385هـ) بالجزائر.

ثانياً– الإمام الإبراهيمي ومنجزاته الثقافية.

يعد الإمام الإبراهيمي من أعمدة الحركة الإصلاحية التي أردفت المجتمع الجزائري بعوامل النهضة والبناء من خلال تقديم المنجزات الثقافية التي تعيد تشكيل الشخصية الوطنية التي استهدفها المستعمر الفرنسي، وبناء الذات المتفاعلة التي تمتلك عقلاً مستنيراً ووعياً كاملاً بمجريات الأحداث والوقائع، وتعزيز فهم الواقع من خلال القيم التي يكتنزها الشعب الجزائري العربي المسلم، وكان للإبراهيمي دوراً بارزاً في تحريك الهمم وتوجيه النشاطات انطلاقاً من بنية فكرية لها ارتباطاتها الثقافية وأساسياتها الأيديولوجية التي تبرز في تجليات حياتية مختلفة، تمس القطاعات الحيوية والمجالات المهمة بالنسبة للشعب الجزائري، خصوصاً في ظل تعرضها للاستعمار الفرنسي، ويتجلى ذلك في الخطاب الثقافي الذي يركز على مقومات تمكين الإنسان الجزائري وإمداده بسبل المواجهة وأساليبها المختلفة، ويقودنا ذلك إلى إعادة ترتيب سلم الأولويات المجتمعية، وتفعيل الأصول وإعادة تدويرها ثقافياً بما يتناسب مع الحاجات الراهنة لأبناء المجتمع الجزائري المسلم، وبما يضمن تحقيق تطلعاتهم المستقبلية في كنس المحتل وقهر جبروته آنذاك، وتحقيق النهضة والتقدم والازدهار في حياة أبناء الشعب الجزائري، فمحورية التفكير ومركزية العمل؛ أنتج متواليات ثقافية لها أبعادها وحدودها ورسومها في تاريخ الشعب الجزائري وثقافته الكلية العامة.

لقد سعى الإمام الإبراهيمي إلى تقديم نموذجاً ثقافياً فذاً في إيقاظ المشاعر الوطنية وتنمية الأفكار التحررية التي تؤمن بالهوية الثقافية لأبناء الشعب الجزائري، والتي تعزز روابطه الحضارية مع أبناء أمة العرب والمسلمين، فهو أحد عظماء الأمة من المصلحين الاجتماعيين الذين أفسحوا المجال الرحب أمام تطلعات الشعوب العربية والإسلامية، وكيفية الخلاص من المستعمر الغاصب، ومواجهة الأفكار الهدّامة والأخطار المحدقة بأمة العرب والمسلمين، فطلب العلم وشد الرحال إليه فسافر إلى بلاد الحجاز التي درس فيها على " كبار علمائها– الوافدين من كل أنحاء العالم الإسلامي– علوم التفسيروالحديث، والفقه، والتراجم، وأنساب العرب، وأدبهم، ودواوينهم، كما درس علم المنطق والحكمة المشرقية، وأمهات كتب اللغة والأدب، ثم أصبح يلقي الدروس للطلبة في الحرم النبوي، ويقضي أوقات فراغه في المكتبات العامة والخاصة باحثا عن المخطوطات"[(2)]، فكانت الترسانة الثقافية والمعرفية التي يمتلكها الشيخ الإبراهيمي هي معول البناء في إدارة الصراع مع المستعمرين وحسم نتائج ذلك لصالح شعوب الأمة العربية، فاتّخذ الدين الإسلامي ركيزةً أساسية في إثراء المنجز الثقافي عند الإبراهيمي؛ فيقول:" دين التحرير، وهو النبأ الذي كان أصحاب الأرواح الصافية يترقبونه، وهو الأمنية التي كانت تملأ نفوس المصطفين الأخيار من عباد الله ثم ماتوا قبل أن تتحقق"[(3)]،فلم تكن ثقافته وليدة اللحظة إنما تضرب بجذوعها في أعماق الفكر العربي والإسلامي مع إعادة تشكيل الذات والشخصية الحضارية من خلال المعطى التراثي الذي يمثل سياجاً رصيناً في مجابهة المتغيرات وتطويع التحديات؛ لأن الجانب الثقافي من أسس أركان المواجهة في ظل تعدد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أساليب المواجهة التي بُنيت على المعلومات، فانطلقت في خطابه الثقافي كونه " ممثلاً للإسلام، منطلقاً من حقيقته الكاملة وتعاليمه الشاملة التي تشغل حياة الإنسان بمختلف مجالاتها"[4]؛ فتحصين الأمة في تكوينها الثقافي يمثل أبرز الإنجازات التي اتّكأ عليها الإبراهيمي في حشد الجمهور بمختلف الأدوات والأساليب والوسائل، فالناظر لمعطيات الفكر والثقافة عند الإبراهيمي يدرك الروابط القومية والتاريخية التي ساقته إلى تكوين الاتجاهات والآراء التي تستجلي معالم الشخصية الحضارية التي يهفو إلى رسمها عند أبناء الشعب الجزائري، فاتّسعت حلقة اتصالاته في المضمار الثقافي وتلاقحت أفكاره النيّرة مع أفكار أبناء أمته الأحرار، فينساق ذلك تحت درجة الوعي الشامل لمتطلبات المرحلة التي عايشتها الجزائر أبان حكم الاستعمار، والتي دفع ضريبتها أبناء الجزائر الأحرار بأفكارهم وثقافاتهم وأرواحهم وأجسادهم، ولم يفت ذلك في عضدهم؛ لأن تعزيز الجبهة الثقافية بالمثل والقيم الوطنية التي تعزز الانتماء والسيادة للإنسان الجزائري، من العوامل الرئيسة في مواصلة الكفاح ودرب النضال ضد الاستعمار ومن ولاه.

لم يعدم الإمام الإبراهيمي الوسيلة في إدارة معارفه وتوسيع دائرة ثقافاته في ظل احتدام الصراع وتعدد أشكاله في الحقبة الزمنية التي عاش فيها، فانهمك في التنقل بين دول العالم العربي، ويسجل ذلك رحلاته العلمية بأسلوب صادق و" إخباري مباشر، يعتمد على التسجيل والواقعية، والوضوح في اللغة والتركيب"[5]؛ لينشر به رسالته الثقافية ويبث جوانب المسؤولية الأخلاقية والوطنية والقيمية والتاريخية أمام أبناء الأمة، ويشد من أزرهم ويرسم سبل الهدى والخلاص أمام ناظر أعينهم، فنادى بالوحدة وتحدي عن قضايا العمق العربي كقضية فلسطين[6]، ولم يثنه ذلك عن الحديث عن التراث العربي ومنجزاته، والخوض في مسائل اللغة العربية، والمشاركة في الفعاليات والأنشطة في مختلف دول العالم العربي، فتفاعل بفكره وثقافته وأخذ ينشرها بالوسائل المتاحة التي تتغلغل إلى قلوب الجمهور المستهدف من أبناء الأمة، فحرّك الهمم وقوّى العزائم عند الأحرار، وبرز ذلك في أقوالهم وأفعالهم،فمثّل أسلوبه " ثمرة لعبقرية أنضجتها عوامل الزمان والمكان والحضارة"[7]؛ فبرز في خطابه الثقافي ومنجزاته "دفاعه عن الإسلام ومقدساته، كما تميّز بمقدرة فائقة على الجمع بين الثقافة العربية القديمة والثقافة الحديثة، وبالرغم من اتّجاهالسلفي، فإنه لم يكن من المحافظين الملتزمين، وإنما كان رجلاً متنوراً متفتحاً على علوم عصره وحضارته، يعيش هموم شعبه، وينفعل لأحداثه وتطوراته"[8]، فلم يكن الإبراهيمي بمنأى عن قضايا أمته وشعبه ووطنه فهو وظّف ما اكتنزه من قضايا ومسائل ثقافية؛ لخدمة دينه ووطنه، وسخر كل إمكانياته من أجل تنوير الأمة وتثويرها في ظل التداخل الحاصل بين مستويات الحياة وحاجاتها الراهنة وتطلعاتها المستقبلية آنذاك، فهو خطيب " شديد العارضة، فصيح اللسان، ساعده في ذلك محصول من اللغة وفير، وإلمام بالأمثال وبراعة في حسن إجرائها في مضاربها، ومعرفة عميقة بطرائق الكلام، والقدرة على التصرف فيه"[9]، فقدَّم الإبراهيمي نموذجاً ثقافياً متفاعلاً له أدواته المركزية وتصرفاته اللامركزية في إدارة الساحة الفكرية والثقافية لأمة العرب والمسلمين، فترك إرثاً ثقافياً خالداً له موضوعاته وأفكاره التنويرية الواعية، وأرضيته التراثية الخصبة، فجمع بين الأصالة والمعاصرة في ثقافته وفكره.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثالثاً– مضامين الخطاب الثقافي في آثار الإمام الإبراهيمي.

يمثل الخطاب الثقافي ركن أساس شيّد عليه الإبراهيمي شخصيته المتفاعلة، وبرهن من خلاله على قدرته الفائقة على إدارة المرحلة بكل متطلباتها، فكان أيقونة فكرية لها أعمالها وممارساتها النظرية والتطبيقية في مختلف المجالات التي ترسم الهوية الحضارية للشعب الجزائري وتعزز أصولها، فدعا الإمام الإبراهيمي إلى إنشاء المواطنة الجزائرية التي تستفيد منها مختلف عناصر سكان هذا البلد بدون تمييز عرقي أو ديني والتي تنشأ معها نفس الحقوق للجميع ونفس الواجبات عليهم، استبدال الميكنزمات الاستعمارية بنظام حكومي، أي بحكومة جزائرية تكون مسؤولة أمام البرلمان الجزائري، والسماح لجميع الجزائريين بالارتقاء إلى جميع المناصب الوظيفية بدون شرط آخر غير الكفاءة المهنية اللازمة لذلك، اعتبار اللغة العربية رسمية على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية، وحرية التدين، وحرية كل مجموعة دينية في الإشراف على أوقافها ومؤسساتها الدينية، وإخضاع الأحوال الشخصية الإسلامية لقضاء إسلامي محض[10]، ويقود ذلك إلى بناء ثقافة عربية رصينة لها أصولها ومرتكزاتها التي تتصل بعمق الهوية العربية والإسلامية ومشكّلات أساسياتها، ولم يقف الأمر على حد ذلك، بل كثّف من نشاطاته الثقافية؛ لتشمل الجوانب السياسية فشارك بقوة في تدعيم متطلبات الحرية والاستقلال، فشارك في تجمع "أحباب البيان والحرية" مع السيد فرحات عباس والسيد الحاج مصالي ، الذي ناضل من أجل الدفاع عن الشعب الجزائري، والمطالبة بحرية التعبير، فاستعمل هذا التجمع سلاح القول والكتابة لمحاربة الاستعمار وللتصدي إلى عنف القوات الإمبريالية واعتداءاتها في افريقيا وآسيا ضد الشعوب الضعيفة، وبالنسبة للعمل داخل الجزائر، فإن التجمع قد حصر مجالات نشاطه في مساعدة ضحايا قوانين الاستثناء والقمع الاستعماري، وتعميم فكرة الأمة الجزائرية وتحبيذ إقامة جمهورية مستقلة ذاتياً ومتحدة مع الجمهورية الفرنسية المتجددة والمناهضة للاستعمار والإمبريالية، فكان الهدف قومياً ووطنياً ويؤكد ذلك على عمق الفكر الثقافي الذي شارك به الإبراهيمي في تحصين الجبهة الداخلية للجزائر، والذود عن حياض أمة العرب والمسلمين في شتى بقاع المعمورة، وانطلقت فلسفة الخطاب الثقافي الأصيل من إمكانية تحقيق الأهداف بواسطة المحاضرات والندوات في جميع الأوساط والأوساط الفرنسية على وجه الخصوص بغرض محاربة الامتيازات التي تستحوذ عليها الطبقات المسيطرة، والدعوة إلى تحقيق المساواة بين الناس وتمكين الشعب الجزائري من حقه في ممارسة الحياة الوطنية مع التذكير بتاريخه العريق وإسهاماته في إثراء الفكر الإنساني[11]، فهذه أفكار ثقافية تحمل روح التقدم والازدهار لأبناء الأمة والشعب الجزائري؛ مما ينعكس على حضارة الجزائر وتاريخه المعاصر بين الأمم والشعوب في المنطقة والعالم.

والناظر في آثار الإمام الإبراهيمي يلاحظ التنوعات الثقافية والمعرفية التي تتضح في رؤيته ورسالته للواقع وحاجاته والمستقبل وتطلعاته، فبُنيت مضامين خطابه الثقافي على التنوع في المجالات، وشموليته لأساسيات النهوض، واتّخاذ الجانب الثقافي التوعوي أسلوباً حضارياً في المواجهة، وتعميق فهم الذات وشحن الكفاية المعلوماتية لأبناء الشعب والأمة، وتبصيرهم بواقعهم وفتح آفاقاً رحبة أمامهم في ظل وجود الاستعمار، وذلك لنيل الحرية والسعي الجاد إلى الاستقلال من خلال أساسيات قوية ومتينة، فاتّخذت الأطروحات الثقافية عند الإمام الإبراهيمي مسارات متنوعة وتوجهات مختلفة تستهدف الوجود العربي المسلم في الجزائر خاصةً والوطن العربي عامةً؛ لأن خطابه الثقافي مبني على أصول استقى مادتها من شيوخه الأصلاء من أمثال " الشيخ محمد العزيز التونسي والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي، لازم الأول في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دروس الفقه حتى أخذ عنه الموطأ رواية ودراية، وكذلك شرح سيرة بن هشام، كما لازم الثاني في دروسه لصحيح مسلم، وعلم التفسير عن إبراهيم الأسكوبي، وأخذ الجرح والتعديل وأسماء الرجال في علم الحديث عن الشيخ أحد البرزنجي الشهرزوري، وقد أخذ أنساب العرب والأدب الجاهلي والسيرة النبوية عن الشيخ محمد بن عبد الله زيدان الشنقيطي، الذي كان أعجوبة زمانه في حفظ اللغة وأنساب العرب"[12]، فأثرى الإبراهيمي التجربة الثقافية والأيديولوجية الجزائرية التي تمثل تجربة نضال وكفاح فريدة من أجل نيل الحرية والاستقلال وتحقيق السيادة على كامل تراب الوطن، ويكشف المكنوز الثقافي عن الشخصية الجزائرية المتفاعلة مع المحيط العربي التي بمقدورها إدارة الصراع وإدراك محاوره وخطورته الفكرية والثقافية وانعكاسات أبعاده على حياة الأمة، فامتشق الإبراهيمي السلاح الثقافي المدعوم بأيديولوجيا رصينة تجمع بين عبق الماضي وحداثة الحاضر، ويمثل ذلك أرضية خصبة في استجلاء المستقبل الاستقلالي لدولة الجزائر، فكما تكون الثقافة في حضورها الراهن يكون مستقبل الدولة والوطن، وهذا ما أدركه الإبراهيمي في تشكّيل خطابه الثقافي القومي الأصيل، ومن الطبيعي جداً أن يدفع جزاء ذلك من سجن ونفي وطرد ومضايقات وتعذيب، فالصراع الثقافي من أصعب أوجه الصراع وتجلياته في مختلف شؤون الحياة ومجالاتها الحيوية وقطاعاتها المهمة، فإعداد الإنسان الحر بفكره وثقافته من متطلبات التحرر الرئيسة التي ينشدها المجتمع الجزائري في تلك الحقبة التاريخية الحرجة، فاستطاع أن يستشرف الإبراهيمي السبل لأبناء شعبه وأمته من أجل إيقاظ شعورهم بالخطر الداهم المحدق بقضيتهم الأم.

رابعاً– أصول الخطاب الثقافي ومشكّلاته في آثار الإمام الإبراهيمي.

يمثل الخطاب الثقافي إحدى عوامل تحقيق النهضة والتقدم عند الإمام الإبراهيمي، وتبليغ مقاصد الإصلاح وغاياته في شتى المجالات والقطاعات الحياتية التي يعيشها أبناء الأمة والشعب؛ لأن الثقافة مرتكز استراتيجي في بناء شخصية الأمة والشعب، وتعزيز مقومات السيادة الوطنية، ووشائج الانتماء الحقيقي للوطن ومقدراته وسلامة أراضيه، وعلاوة على ذلك فإن الثقافة سجل الشعب الخالد، الذي يحفل بالممارسات القومية والتاريخية التي تؤطر تمثيل الشعب ووجوده وحقوقه في تقرير المصير، وتضمن حريته في الأطروحات والمقترحات المتعلقة بالنهضة والبناء، فوظَّف الإمام الإبراهيمي ذلك في تأطير رأيه في سبيل النهوض والتحرر، فساهم في تكوين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أخذت على عاتقها تعزيز الأصول الحضارية عند الشعب الجزائري، والاهتمام ببناء الهوية الجزائرية وكيانها المستقل الذي ينعتق من قواعد الاستعمار والتبعية، فهذه الجمعية التي شارك فيه الإبراهيمي أرست قواعد الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي، ومثّل ذلك أصولاً متفاعلة في الخطاب الثقافي عند الإبراهيمي، وذلك بالتركيز على العلم والمعرفة في مواجهة الاستعمار، والتعامل المنطقي مع متغيرات الواقع ومجرياته، فحشد الإبراهيمي وأبناء الجزائر الأحرار جهودهم في هذا الأمر؛ مما أوغر صدر الحكام الفرنسين عليهم؛ فقال أحدهم:" إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرأون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم"[13]، والحق ما شهدت به الأعداء، ويقود ذلك إلى بيان عامل الدين في تشكيل ثقافة المواجهة، فيعد الإصلاح الديني والاجتماعي من أصول الخطاب الثقافي ومشكلاته عند الإمام الإبراهيمي؛ لأن ذلك يهيئ الأنفس ويرشد العقول والآراء ووجهات النظر، إلى الانصهار في الحركة السياسية التحررية، التي تمارس النشاطات الثقافية عن طريق التربية والتعليم والتكوين، وبناء المساجد والنوادي والمدرس، وإحياء المقومات الذاتية للشخصية الجزائرية،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ورط الجزائر بمحيطها العربي والإسلامي الذي أراد الاستعمار انتزاعها منه[14]، ويكون ذلك الوحدة الوطنية ويحفظها بالجهاد الواجب بمختلف أشكاله، والذي تشكل الثقافة الدينية جزءاً رئيساً منه في فكر الإمام الإبراهيمي؛ فقال الشيخ مبارك الميلي- مؤرخ الجزائر وأحد علمائنا- يكتب في العشرينات في أحد أعداد جريدة "المنتقد"، "من حاول إصلاح أمة إسلامية بغير دينها، فقد عرض وحدتها للانحلال وجسمها للتلاشي، وصار هادماً لعرشها بنية تشييده"[15]، فالحركة الدينية التي قادها علماؤنا الأجلاء تعدى صداها حدود الوطن، وكانت ثورة ثقافية حقيقية- بمفهوم اليوم- قلبت أوضاع الشعب الجزائري، وجعلته يعيش في حالة تناقض دائمة مع الاستعمار، ويتفاعل مع قضايا أشقائه في المغرب الأقصى وتونس والمشرق العربي، وكانت حرباً بدون هوادة على الجهل والتحجر والبدع والخرافات والخمول والاستكانة، لقد أدخلت تلك الثورة الثقافية على المجتمع الجزائري تحولات في مفاهيمه، إذ أيقظت فيه روح الأخوة والتضامن، وبعثت فيه الأمل الذي هو مفتاح الوصول إلى الغاية المنشودة، وأعدت لذلك الوسائل الملائمة التي رسمت الطريق إلى شاطئ الخلاص وبر الأمان[16]، وحقيقة ذلك تتجلى في جهود المخلصين من أبناء الجزائر العظيم الذين كان الإبراهيمي أحدهم فشارك في نشر الثقافة الدينية ووسع دائرتها بين أبناء الشعب، من أجل الحرية والانعتاق من ربقة الاستعمار الغاصب، فجاء الخطاب الثقافي يتصدى للغزو " الفكري الاستعماري الذي يشكك المسلمين في تاريخهم وتراثهم للقضاء على مقومات وجودهم وجعلهم كمية مهملة في ميزان القوى العالمية"[17]، فتآلف العمل الثقافي مع أساسيات الهوية المتمثلة في الجانب الديني والسياسي، من أجل تحقيق الريادة والسيادة والحرية والاستقلال.

إن قضايا الأمة العربية والإسلامية لم تغب عن الخطاب الثقافي، فهي إحدى المشكِّلات التي لاقت رواجاً كبيراً عند الإمام الإبراهيمي، كقضية فلسطين التي يقول فيها:" أيظن الظانون أن الجزائر بعراقتها في الإسلام والعروبة، تنسى فلسطين أو تضعها في غير منزلتها التي وضعها الإسلام من نفسها؟ لا والله، ويأبى لها ذلك شرف الإسلام ومجد العروبة ووشائج القربى"[18]، ويدلل ذلك على قوة العقيدة والثقافة العربية والإسلامية التي يمتلكها الإمام الإبراهيمي، فيأبى بفكره وثقافته أن يُعطي الدنية في دينه ودنياه؛ لأن قضية فلسطين من العقيدة نظراً لمكانتها الدينية التي حباها بها الله دون غيرها، فلم تغب عن ذهنه ولم ينشده عن ذكرها إلى جانب قضايا الأمة في المشرق والمغرب العربي، واستنهض همم العرب والمسلمين واستوقفهم في تعبيره عن خطابهم الثقافي؛ فيقول:" أيها العرب! قسمت فلسطين، فقامت قيامتكم، هدرت شقاشق الخطباء، وسالت أقلام الكتاب، وأرسلها الشعراء صيحات مثيرة، تحرك رواكد النفوس، وانعقدت المؤتمرات، وأقيمت المظاهرات، عَلِمَ الصهيونيون أن الوعد لا يعدو كونه وعداً، وأن نصه الطري اللين ... أن انجلترا تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي لليهود بفلسطين، فأعدوا لتحقيقه المال، وأعدوا الرجال، واتخذوا من الوقت سلاحا، فلم يضيعوا منه دقيقة، واستعانوا بنا علينا، فاكتسبوا من ضعفنا قوة، ومن جهلنا قوة، ومن تخاذلنا قوة، ومن أقوالنا الجوفاء قوة، وأصبحت هذه القوات كلها ظهيراً لهم علينا"[19]، وهذا القول يوحي بالمراجعات الفكرية والثقافية لطبيعة المواقف والخطاب المنجز والمعروض على الجماهير بخصوص الأحداث الجسيمة والوقائع التي لحق بالأمة العربية والإسلامية.

وتحدث الإمام الإبراهيمي عن فلسفة الثقافة والتفقه في كينونتها، فكتب مقالاً بعنوان" واجب المثقفين نحو الأمة"، ومقال بعنوان" كيف يؤدي المثقفون واجبهم"، ومقال بعنوان" منزلة المثقفين في الأمم الحية"[20]، وأشاد بهم؛ فقال:"

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خيارها وسادتها وحراس عزها ومجدها"[21]، ولم يتوقف الأمر على ذلك، فبيّن أن المثقف، هو" الرجل المهَذّب المستنير الفكر المجوهر العقل المستقل الفكر في الحكم على الأشياء، الجاري في تفكيره على قواعد المنطق لا على أسس التخريف، المطلع على ما يمكن من شؤون العالم وتاريخه، الملم بجانب من معارف عصره"[22]، فهو بذلك يرسم الخُطى الأساسية لفلسفته المنهجية حيال ممارساته في الخطاب الثقافي، والتي تمثلها مجموع مقالاته " البصائر" التي تعد أهم مؤلفاته التي جمع فيها نثره الفني[23].

وتعد التربية والتعليم من أصول الخطاب الثقافي عند الإمام الإبراهيمي، فساهمت في الحديث عن المحددات الأساسية في تكوين الجيل القادر على تحمل مسؤوليات المرحلة وتبعياتها، والأخذ بزمام المبادرة، فكان الإبراهيمي "يقرأ في سائر فروع العلوم الإنسانية"[24]، فنشأ على تربية وتعليم قوي، فلذلك دعم الإبراهيمي التعليم في عهد توليه رئاسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فأصبح للتعليم لجنة عليا تشرف عليه وتوجهه وتوظف المعلمين وترتبهم وتحدد رواتبهم وطبقاتهم وتعييناتهم وانضباطهم وترقياتهم. وكذلك تشرف على المدارس ومراسلاتها والمديرين ومسؤولياتهم، وقد مجدت المدارس المواسم الدينية والتاريخية، وهو أمر داخل في عملية الإحياء الثقافي، وعمل في هذه اللجنة عدد من مزدوجي اللغة؛ مثل: إسماعيل العربي والحفناوي هالي وإبراهيم مزهودي، كما عمل فيها وحيدو اللغة العربية؛ مثل: عبد القادر الياجوري ومحمد خير الدين والعربي التبسي[25]، وكانت فلسفته التربوية تنطلق من " الإصلاح الديني القائم على كتاب الله وسنة رسوله(ρ) هو الأساس المتين للإصلاح الاجتماعي والسياسي"[26]، ويعد ذلك رابطاً قويماً في توجيه السلوك السوي والحضاري لأبناء الأمة والارتقاء بهم، وتمثل اللغة العربية عاملاً أصيلاً في الخطاب الثقافي عند الإمام الإبراهيمي، فافتدى اللغة بأفكاره النيّرة من أجل بناء الشخصية اللغوية المستقلة التي تنهل من أصول التراث وتستثمر الأساليب المتوفرة من أجل نشر العلوم ونقل المعارف بصورة حضارية متفاعلة لها في مسيرة تنمية العربية وتطويرها، وجاءت جهوده ضمن حركة نهضوية مع ثلة من الأحرار الذين جادوا بقرائحهم من أجل شعوبهم وأمتهم في دولة الجزائر، فاللغة عنده هي "إحدى المقومات الأساسية؛ لبناء الوعي والشخصية العربية والإسلامية المتفاعلة مع واقعها والتي تمتلك رؤية لمستقبلها"[27]، وناقش قضاياها ومسائلها، فاللغة هي وعاء للفكر والثقافة، فجاء خطابه الثقافي حافلاً بألوان عديدة من بلاغة الإقناع وبراعة الاستدلال، وتأثر ذلك بالنشأة الدينية للإبراهيمي، التي أثرت في تقوية دافع الحجاج لديه، فعمد إلى استعمال مختلف أنواع الحجج والبراهين في خطاباته، سواء منها الحجج اللغوية أم الحجج المنطقية[28]؛ مما نشر آرائه وأقواله، وجعله يُؤثر في الآخرين، فهو جمع بين " الجمال الأدبي في الصياغة، والتعبير عن الأفكار والحقائق"[29]، فيمثل ذلك عامل الصدق في العرض والتوثيق واللغة الشعرية الصادقة في الأدب الملتزم.

وقادت مأسسة العمل وهندسة الجهود عند الإمام الإبراهيمي إلى الاعتماد المتنامي على الخطاب الثقافي الواعي، الذي يمثل التفكير الجمعي، ويقود إلى فاعليته وضمان حيويته في ظل تعدد الأقطاب وتنوع أشكال الصراع، فشارك علماء الجزائر من زملائه وأصحابه وأصدقائه، واجتهد معهم من أمثال الشيخ المجاهد عبد الحميد بن باديس، والشيخ مبارك بن محمد الميلي والشيخ أحمد توفيق المدني والشيخ محمد العيد آل خليفة، والعربي التبسي وإبراهيم أبو اليقظان والأمين العمودي ويحي عمودي ومحمد خير الدين والطيب العقبي والسيد الزاهري ومحمد علي دامرجي والشيخ عبد الرحمن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الجيلالي.. وغيرهم[30]، فهؤلاء العلماء وأمثالهم لهم بصمات واضحة في حياكة الخطاب الثقافي التنويري العام الذي يستهدف توعية الشعب الجزائري والعمل على نهضته وتقدمه في مصاف حضارات الأمم والشعوب؛ فيقول بسام العسلي:"علماء ثورة الجزائر، وكتابها وفنانوها وأدباؤها وشعراؤها ورجال صحافتها، فقد عملوا وسط ظروف يصعب وصفها، ووسط مناخ من اليأس القاتل، غير أن القلوب التي يعمرها الإيمان بالله الواحد القهار، والنفوس التي يضيئها نور الإسلام الخالد، استلهمت من إيمانها وإسلامها كل الثقة بالنجاح وكل الأمل في المستقبل"[31]، فالإمام الإبراهيمي أحد الأفذاذ الذين بنوا خطاباً ثقافياً متفاعلاً مع قضايا أمتهم، فبُنِي عنده أصول الخطاب الثقافي على الدين واللغة والتاريخ والأخلاق والعلم والمعرفة المرتبطة بعمق التراث العربي والإسلامي الذي يمثل القومية الحضارية والثقافية لأمة العرب والمسلمين.

يمثل الإبراهيمي ظاهرة فذة في إنتاجات إبداعاته التي تنوعت مصادرها التراثية، والتي أنتجت خطاباً ثقافياً يمثل فلسفة تنويرية مبنية على الحكمة والمنطق في تدعيم الأصول واستنباتها، وتعزيز وشائج القُربى بينها وبين الأدوات المستحدثة؛ مما يساهم في إعادة الحياة للتراث وعيونه، وإنتاج المعرفة العربية والإسلامية بوسائل وطرق حداثية تبعث الحيوية والتفاعلية في جهود المحدثين وإبداعاتهم الخلّاقة؛ فينمي ذلك الموروث التراكمي والحصيلة العلمية والمعرفية بمختلف أوعيتها المتنوعة.

نتائج البحث وتوصياته

اشتمل البحث على كثير من التحليلات المتعلقة بأصول الخطاب الثقافي ومشكِّلاته في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، وتوصل إلى مجموعة من النتائج والتوصيات، وذلك على النحو الآتي:

أولاً– النتائج:

1- يرتبط الخطاب الثقافي عند الإبراهيمي بالعمق التاريخي القومي لأمة العرب والمسلمين.

2- تنطلق أصول الخطاب الثقافي عند الإبراهيمي من تمثيلات الهوية وتدعيم ممارساتها انطلاقاً من المعطى التراثي العربي والإسلامي والمنجز الحضاري الحديث.

3- تتجسد مشكِّلات الخطاب الثقافي من منطلقات تأصيلية متعمقة تتعلق بالدين واللغة والتاريخ والتربية والتعليم والسياسة والاجتماع التي تبني الذات والشخصية الحضارية وتعزز فيها مبادئ الانتماء والسيادة من منظور المواطنة الصالحة.

4- ارتكز الخطاب الثقافي عند الإبراهيمي على الدين والعلم والأخلاق في بناء الهوية الحضارية لأبناء الشعب الجزائري، وتأطير أصولها في الأعمال التنويرية للإصلاح السياسي والاجتماعي من أجل الانعتاق من الاستعمار، وتحصين التكوين الثقافي لأبناء الأمة والشعب.

5- تقوم فلسفة الخطاب الثقافي عند الإبراهيمي على الحكمة والمنطق، والنظرة الشمولية لمجريات الوقائع والأحداث؛ بهدف تنوير المجتمع وبناء الوعي الحضاري.

ثانياً– التوصيات:

1- تحليل آثار الإمام الإبراهيمي ومعالجتها من منظور اجتماعي وثقافي وفق التطبيقات المنهجية المعاصرة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2– دراسة فلسفة الخطاب وأساسيات مشكّلاته في مختلف المجالات والقطاعات الحيوية عند الإمام الإبراهيمي.

فهرس المصادر والمراجع

1- آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي، محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي (ت 1385هـ)، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت 1997م.

2- أدبية الخطاب النثري عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، حسين بو حسون، دار الأخبار للصحافة، ط1، الجزائر 2011م.

3- أعلام الجزائر الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى، محمد فضلاء، مكتبة البعث، ط1، قسطنطينية 1984م.

4- البشير الإبراهيمي عظيم من الجزائر، عادل نويهض، دار الأبحاث، بيروت 1986م.

5- البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، محمد مهداوي، دار الفكر، ط1، سوريا 1988م.

6- بلاغة الخطاب الحجاجي وآليات اشتغاله في خطابات محمد البشير الإبراهيمي، نبيلة أعدور، مجلة دراسات معاصرة، سنة 2 مج 2 جويلية/يوليو، الجزائر 2018م.

7- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت 1998م.

8- تاريخ الجزائر المعاصر، محمد الزبيري، اتّحاد الكتاب العرب، دمشق 1999م.

9- سلسلة جهاد شعب الجزائر، بسام العسلي، دار النفائس، بيروت 1986م.

10- فلسطين وشمولية المكان في خطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين(خطب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أنموذجاً)، بولمعالي النذير، مجلة التواصلية، ع5، الجزائر2016م.

11- فنون النثر الأدبي في الجزائر، عبد الملك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983م.

12- معجم أعلام الجزائر- من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، بيروت 1980م.

13- مقومات الإصلاح اللغوي وبعدها الحضاري في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، حسين دراوشة، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، ع3 ج2 جانفي، الجزائر 2018م.

14- النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، عبد الملك بومنجل، بيت الحكمة للنشر، ط1، الجزائر 2009م.

---

(1) معجم أعلام الجزائر- من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، 1/13-14 والبشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص33.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 1/9-10.

(3) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 4/357.

(4) النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص63.

(5) البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص188.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(6) يُنظر: فلسطين وشمولية المكان في خطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين(خطب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أنموذجاً)، ص31؛ 34.

(7) أدبية الخطاب النثري عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ص 10 .

(8) البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص37.

(9) فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص281.

(10) تاريخ الجزائر المعاصر، 42/1.

(11) تاريخ الجزائر المعاصر، 45/1.

(12) البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص44.

(13) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 7/1.

(14) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 8/1.

(15) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 8/1.

(16) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 8/1.

(17) أعلام الجزائر الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه الأولى، ص155.

(18) سلسلة جهاد شعب الجزائر 154/7 وآثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 438/3.

(19) سلسلة جهاد شعب الجزائر 156/7 وآثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 441/3.

(20) آثار الإمام محمد الإبراهيمي 126/2- 127.

(21) آثار الإمام محمد الإبراهيمي 126/2.

(22) آثار الإمام محمد الإبراهيمي، 125/2.

(23) يُنظر: النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص21.

(24) البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص37.

(25) تاريخ الجزائر الثقافي، 255/3.

(26) البشير الإبراهيمي عظيم من الجزائر، ص67.

(27) مقومات الإصلاح اللغوي وبعدها الحضاري في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص312.

(28) بلاغة الخطاب الحجاجي وآليات اشتغاله في خطابات محمد البشير الإبراهيمي، ص160.

(29) البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص133.

(30) يُنظر: سلسلة جهاد شعب الجزائر، 7/7.

(31) سلسلة جهاد شعب الجزائر، 7/7.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com